العربية

أ. د. مازن المبارك

العربيّة هي اللغة التي خاطبنا بها الله جل جلاله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

العربية هي اللغة التي نشّأني عليها أبي، وغذّتها رعايته، فقد كان ينثر فوائدها وفرائدها في البيت يمينًا وشمالًا كلما سمع فردًا من الأسرة يتحدّث، فإذا انحرف لسانه عن الصواب ردّه إليه.

لا أدري كيف أصوّر لكم حبّي للّغة؟! لقد درَّست النحو والصرف والبلاغة، وهي علوم اللغة، نصف قرن وأكثر، ولكني حين أقرأ نصًّا من نصوص اللغة الجميلة المبينة لا أذكر نحوًا ولا صرفًا ولا بلاغة، وإنما يأسرني شيء آخر، ويشدّني سحر آسر، ينسيني كلّ ما عرفت من نحو وصرف وبلاغة، ويعلو بي إلى جوٍّ أو إلى درجة من الإعجاب لا أذكر معه شيئًا من علوم اللغة نحوها وصرفها وبلاغتها!

إنّ حُبّي للغة قد لا أستطيع وصفه أو التعبير عنه، ولكنّه حبّ الصحبة والألفة، حب ائتلافٍ روحيٍّ يُنسيك جمالُهُ وصفَ جزئياته أو تحليلها.

إنني حين أقرأ نصًّا نثرًا أو شعرًا، لعبّاسيٍّ أو لمعاصر، تشدّني جملة من نثره أو بيت من شعره، ويأسر نفسي جمالها، وتعجز نفسي عن الوصول إلى سرّ جمالها! إنه ليس في حروفها ولا في كلماتها، ولا في صياغتها، ولا في

إصابتها للمعنى، لعلّه في ذلك أو في شيءٍ منه! إنه الجمال الذي تُحسّه في جزءٍ من ذلك أو في ذلك كلّه، ولكنّه يذهلك حتى لا تقوى على وصفه!

ولطالما قرأت شعرًا أو نثرًا أعجبني، فحين قرأت تحليل المحلّلين أو نقد الناقدين وتوضيحهم لسرّ الجمال فيه، افتقدت ذلك الجمال الذي كنت أجده فيه!

إن اللغة التي يأسرنا جمالها هي بنت موهبة عجنت كاتبها وعجنها، ألفةً وممارسة حتى خطرت له منها بارقة فاقتنصها، وأما القارئ فلا يذوق حلاوة ذلك، ولا يدرك جمال تلك اللغة في حروفها وكلماتها، وإنما يدركها إحساسًا روحيًّا ونفسيًّا، وكأن بينه وبينها صلةً أو ألفةً تكاد تكون روحًا من روحها، وروحًا من روحه تعارفا فائتلفا.

وغير خافٍ أن الناس تختلف أذواقهم؛ فما يُعجب طائفةً منهم قد لا يعجب الآخرين، وكأن اللغة تعطي كلًّا منهم ما يلائم هواه!

وكأنّي بالقارئ أو السامع حين تعجبه لغة أو جملة منها، لا يستشفّ في تلك اللغة أو الجملة روح اللغة وحدها!، ولكن يستشفُّ منها روحها وروح الكاتب أو المتحدّثِ الذي صاغها ونفسيّتَه التي كان عليها حين صاغها.

إن المتلقيَ الذي يسمع اللغة بروحه قبل أن يسمعها بأذنيه، يدرك الحالة النفسية للمتحدث، ويدرك ما يتصف به محدّثُه من صدقٍ أو كذب، من صفاءٍ أو خُبث، من وضوح أو غمغمةٍ،...

ألم يقل معاوية بن أبي سفيان: من خادعنا ليخدعنا، انخدعنا له لنوهمه أنه خَدَعنا..؟

وإن للعرب في لغتهم تفنُّنًا عجيبًا، وسياسة طريفة رائعة، فهم يملؤون الوعاء الواحد بمعنيين، يدلّون به عليهما، والسياق يفرّق بينهما، ككلمة

(الأديب) التي تدل على من حسن سلوكه وجمُلت أخلاقه كما تدل على من جوّد أسلوبه وجمّل لغته، وككلمة (المنطق) التي هي المصدر الميمي للنطق؛ أي: للكلام، وهي التي يدلّون بها أيضًا على عمل العقل المنضبط المنظّم... ولكنِ انظر إلى الطرافة والجمال حين يقول أحد أو ينطق بكلمة (الأديب) مريدًا أحد المعنيين، فيلقي اللفظ بظلاله على المعنى الآخر ويومئ إليه.. فما أحلى أن يكون (الأديب) أديبًا بلسانه وأديبًا بتصرفه وسلوكه!، وحين تقول (منطق) أن يكون دالًّا على نطق اللسان، وعلى ما ينبغي أن يرافقه من منطق العقل وعمله!.

فاللغة هي القناع الذي نتقنّع به، ووراءه، والماهر من المتحدّثين من يُجمّل قناعه، والماهر من السامعين من يستشفّ ما وراء القناع! ألم يقولوا: تحدّثْ لأراك؟!

إذا كانت لغة المتحدّث شفّافةً أمينة، صافيةً مبينة، سمْحة غيرَ متكلَّفة، تنطلق من شفتيه بعفوية ويُسْر، فإنها القناع الذي يدلّ على صدقه، أو على تمثيله المتظاهر بالصدق!

وإن الذي يتحدث بصدق وعفوية فإن اللغة على شفتيه كالماء الصافي في الإناء الزجاجيّ الصافي، ترى صفاءه من ظاهره؛ فإذا تحدّث فكأنك تراه من خلف الزجاج!

أليست الكلمات أوعيةً للمعاني؟ وهل نشرب الماء إلا بالأوعية النظيفة؟! فإذا تحدّثت فاختر لأفكارك الأوعية الشافّة النظيفة، تلك التي تشفّ عن أفكارك، فلا تكاد تلفظها شفتاك حتى يقفز معناها إلى سامعك، بلى إن أحسن المفردات تلك التي يعطيك لفظها بصوته معناها، لِما في لفظها من تصوير لمعناها... كالقضقضة التي يعطيك لفظها بصوته معناها!

والتي نعرفها حين تقضقض أسناننا من شدّة البرد.

يقضقض عُصلًا في أسرّتها الردى　　كقضقضة المقرور أرعده البرد

وهل هناك بيانٌ أكثر من أن يعطيك معنى القضقضة بلفظها؟

على أن في العربيّة أساليب أخرى كثيرة تعبّر عن المعاني والأفكار؛ إن لم يكن بالكلمة المفردة فبالجملة من الكلمات التي ينضم بعضها إلى بعض، فتعطيك المعنى التامّ أو الصورة الجميلة التي تضافرت الكلمات على تصويرها وإظهار جمالها! وذلك كقول الشاعر:

إذا خانني خلّ قديم وعقّني　　وفوّقتُ يومًا في مقاتِله سهمي

تَعرَّض طيفُ الودِّ بيني وبينه　　فكسّرت سهمي وانثنيتُ ولم أرمِ

وآخر ما لفت نظري أن العرب أطلقوا كلمة (أديب) على من حَسُن إنتاجه اللغوي، لأنهم أطلقوها أصلًا على من حسُن سلوكه وحسنت أخلاقه. والتفريق بينهما راجع إلى السياق، ولكن في ذلك دلالة على أن الأصل هو (الأدب) في الوصفين؛ أدب اللسان وأدب السلوك! وكأن في ذلك إيماءً إلى أنّ من جَمُلت كلماته يجب أن يكون أصلًا جميلًا في تصرّفه وسلوكه.

وكقول الشاعر في القتال بين أولي القُربى:

إذا افترقوا عن وقعةٍ جمعتهم　　لأخرى دماءٌ ما يُطلّ نَجيعُها

حميّة شعبٍ جاهليٍّ وعزّةٌ　　كليبيّةٌ أعيا الرجالَ خُضوعها

وفرسانُ هيجاء تضيق صدورُها　　بأحقادها حتى تضيق دروعها

تُقتِّل من وِترٍ أعزَّ نفوسها　　عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعها

شواجر أرماحٍ تقطّع بينها　　شواجرَ أرحامٍ مَلومٍ قَطوعها

إذا احتربتْ يومًا ففاضت دماؤها　　تذكّرتِ القُربى ففاضت دموعها

إن ممارسة اللغة تجعل بينها وبين صاحبها ألفة قد تبدو في كتابته أو حديثه، إن الأديب حين يكتب نصًّا أنشأه أو صاغه تكون اللغة التي كتب بها صورةً لإبداعه ومرتسمًا لأفكاره، كما تكون صورة لنفسه في عيون قرّائه؛ لأن اللغة وإن كانت أصواتًا نعبّر بها عن المعاني، فإنها أوعية لما في نفوسنا من أفكار ومشاعر نفسية داخلية ألبسناها تلك المفردات التي نعبّر بها عنها! إنها صورة لما في نفوسنا وأرواحنا من الأفكار والمعاني أظهرناها بأقنعتها على شفاهنا.. وكأن ما على اللسان من مفردات وأصوات مرآة لما في الأعماق الإنسانية من مشاعر وأفكار.

إن اللغة العربية أطول اللغات عمرًا، ومن أكثرها قدرة على إنتاج المولَّد والمُشتَق... حتى أصبحت اللغة العربية ذاكرة الأمة العربية وسجلّ تاريخها، وستبقى متعالية على الحدود القُطرية، ومتعالية على الزمان مهما تتابعت السنون، يحملها ويرعاها ويُثبّتها وينشرها القرآن حيثما قرئ، وأينما سار، ولن يضرّها تباين لهجاتها القطرية المختلفة ما دام القرآن يُتلى كما أنزل مشافهةً؛ يتلقّاه جيل عن جيل.

وسيبقى للغتنا العربية بُعداها الزماني والمكاني، مهما اختلفا أو تباعدا؛ أما الزماني فيشهد له أن طلابنا في مدارسهم وجامعاتهم يقرؤون أشعار المعلَّقات والشعر الجاهلي، على حين أن غيرهم كالإنكليز مثلًا لا يستطيعون أن يقرؤوا اليوم شعر شكسبير كما نقرأ شعر الحطيئة أو امرئ القيس، وبين المثالَين ما بينهما من فَرق في البُعد الزمني!

وإن لغتنا تزوّد قارئها والناطق بها بشعور يعلو به فوق الزمان وفوق المكان، بل يرتبط الناطق بها بما يشدّه إلى تاريخ بعيد، وحاضر جديد، ومستقبل مجيد. إنها روح الأمة في الفرد، وهل الشعور القوميّ إلّا شعور الفرد

بأنه واحد من جماعة؟، إن اللغة الواحدة تطبع الجماعة الناطقة بها بروح واحدة، وكأنهم أبناء مدرسة واحدة. إن الفكر المشترك والثقافة الواحدة تطبع الناطقين بها بطابع واحد في الفكر والثقافة، وهو الطابع الذي يوحّد الأمة في الشعور والفكر والثقافة. وذلك هو الطابع الذي يعبّر عن شخصية الأمة وهُويتها وثقافتها، ويبقى حارسًا لوحدتها، وهذا ما يفسّر لنا تشجيع العاميّات والدعوة إلى أنها لا خطر منها على فصحانا... مع أنها ضَرَّة تزاحمها على ألسنة الناس ليألفوها، ثم ليُحلّوها محلَّها... لذلك منعت المجامع اللغوية العربية الكتابة بها، ودعت إلى وجوب استعمال الفصيح في الكتابة، وفي الإعلام، للصغار والكبار على السّواء، لتكون هي المدرسة التي يتخرجون بها، ولتألفها ألسنتهم، ولتكون هي الجنسيّة التي ينتسبون إليها ويعتزون بها، ولأن الابتعاد عنها انسلاخ عن الجنسية العربية المتمثلة بها.

وإن وحدة اللغة هي آخر ما بقي للعرب من عناصر وحدتهم وأدلّتها، بل هي الهُويّة الثقافية المعبّرة عن روح الأمة وشخصيتها.

لذلك يجب أن نقتحم بها الميدان العلمي، وأن نجعلها لغة للعلم، ليُكتبَ العلم بها مرّةً أخرى، كما كُتب بها يوم كنا نُنتجه، وإن إبعادها عن ذلك بحثًا وتأليفًا وتدريسًا وأدٌ لشبابها وكتْم لطاقاتها.

ولا بدّ أن يرعاها الحاكم بحمايتها، ويرعاها العالم باستخدامها وإحيائها، ويرعاها اللغوي بتذليلها وتيسير السبيل إليها، وتوليد المصطلحات منها، ويرعاها الأديب بتجديد شبابها، وجذب الناس إليها، وتجليتها وكأنها عروس يأسرك منها الجمال، أو السحر، أو العطر. فكيف وفي عربيّتنا يجتمع الثلاثة معًا؟! وسبحان من قال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣].

إن اعتصامنا اليوم بلغتنا واجب ديني وقوميّ وسياسيّ.

فأما الديني فلا إسلام بلا قرآن، ولا قرآن بغير العربية.

وأما القوميّ فلغتنا الفصيحة المبينة اليوم هي عماد وحدتنا؛ فالأمم المتقدمة اليوم لم تجد في لغاتها ما يجمعها، فابتدعت (اليورو) ليجمعها! وقد أبدلنا الله به لسانًا عربيًّا مبينًا، فإذا اعتصمنا به ورعيناه رعانا، وكان مظهر وحدتنا وعمادها، وإذا فرّطنا به، أو أضعناه، ضعنا معه وذهبت ريحنا، والتاريخ يشهد بصدق هذه المعادلة بين اللغات والناطقين بها، فكم من أمة ضاعت لغتها؛ فتشتت الناطقون بها وضاعوا!، بل إن تاريخنا العربي يشهد أن لغتنا صورة لواقعنا، وأنها تواكب مسيرتنا؛ تنهض يوم ننهض ونتقدم، ونكتب العلمَ بها، وتتخلف يوم نتخلّف، ويوم نبتعد عن العلم وإنتاجه، إنها مرآتنا في تقدّمنا وفي تخلّفنا.

وإن الأمل اليوم أن تعود أمتنا إلى إنتاج العلم، وإلى كتابته بلغتنا، والحاكم يرعاها بحزم وتشجيع، والعالم بعلمه وإبداعه، واللغوي بتطويعها للتعبير بحروفها عن العلم وفروعه. وبذلك تعود العربية إلى استيعاب العلوم، وتعود العلوم إلى التعبير بالعربية، لتكون اللغة العربية في الوطن العربي ناطقة بالعلم وفروعه، كما تنطق بالأدب وفنونه، وما ذلك ببعيد إذا تضافرت جهود الحاكم والعالم واللغويّ، ورافقت تلك الجهود الهمّة والعزيمة والإخلاص.

* * *